الفصل الثالث

الخمر وأخلاق الجاهلية

obeikandl.com

الخمر وأخلاق الجاهلية

في المدينة المنورة، بينما كان المسلمون يعيدون ترتيب حياتهم طبقاً لمنهاج الدين الجديد، كانت هناك جماعات أخرى في شبه الجزيرة العربية تعيش حياة الجاهلية. ولربما كانت الخمر بالنسبة للعربي في الجاهلية ضرورة نفسية أكبر مما هي بالنسبة لأي مجتمع آخر آنئذ، فالكبرياء القَبَلي والاعتداد بالذات كانتا من بين التقاليد التي يبذل العربي الجاهلي كلّ ما في وسعه في سبيل إعلائها، ولقد كان معروفاً في الجاهلية تلك الجملة ا لمأثورة التي تقول: "انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً" والتي توجز تعصّبهم القبلي الجامع[1]، فكانت أية إيماءة تافهة يلوح منها النَّيل من منـــزلة الفرد أو قبيلته تؤدّي إلى الاستجابة الرادعة، كما كان المدح يجلب على الفرد والقبيلة أكبر الثناء، مما مكّن هذه القيم العقيمة لأن تكون غالباً من وراء الأسباب الرئيسية للحرب والسلام، والشعر والخطب التاريخية. فقصيدة جيدة من شاعر مشهور في مدح قبيلة ما، كانت تملأ أفرادها زهواً وتوهمهم بالاستعلاء والاعتداد بالنفس، وسرعان ما ينتشر مثل هذا الشعر البليغ إلى كلّ ركن قصي من أركان الجزيرة العربية حاملاً معه أحاسيس الفخر للقبيلة الممدوحة.

---

(1) يذكر الحافظ بن حجر في فتح الباري أنّ جندب بن عنبر -وهو عربي جاهلي- أول من قال هذا المثل. انظر كتاب أبي الحسن الندوي: "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" دار العلم: الكويت، 1970، ص 70.

واستمع على سبيل المثال إلى الشاعر الجاهلي المعروف عمرو بن كلثوم في إحدى قصائده المشهورة التي خلد بها قبيلته:

أبــا هند فلا تَعْجَــل علينــا وانظرنــا نخبِّــرْكَ اليقينــا

بأنّــا نوردُ الرايــات بيضــا ونصدرُهُن حُمراً قد رُوينــا

ونشربُ إن وردنا الماءَ صَفواً ويشربُ غيرُنا كدراً وطينــا

إذا بَلَغَ الفطامَ لنــا رضيــعٌ تخــرّ له الجبابــرُ ساجدينــا

ويمكن لمثل تلك الأشعار التي تعكس إيقاعات عربية بليغة أن تحرّك مشاعرَ الحميّة القبلية في النفوس وأن تثير الجموع حتى أنّهم يشنّون الحروب المدمرة بكل حماسة متدفقة ولأسباب تافهة. فتلك مثلاً حرب البسوس التي اندلعت بين قبائل -بل أبناء عمومة- من بكر وتغلب، واستمرت أربعين عاماً لأنّ كُليباً وهو أحد زعماء القبيلة، قد أصاب ضرع ناقة كانت لبسوس بنت منقد فاختلط دمها بلبنها في ضرعها، وقد ورد أنّ المهلهل أخا كُليب وصف في كلمات مؤثرة تلك الحرب الفتاكة التي قُتل فيها كليب نفسه، فقال: "قد فنى الحيّان، ثكلت الأمهات، ويتم الأولاد، دموع لا ترقأ وأجساد لا تدفن".[2]

وقد اقترنت هذه الحساسية المفرطة بالنسبة للكرامة الشخصية والقبلية بمشاعر عميقة من عدم الأمن النفسي الذي يزيد من تعلّق المرء بقبيلته واستعداده لبذل النفس والنفيس للإبقاء على راياتها خفاقة، فالحروب تقع

(2) أبو الحسن الندوي: المصدر السابق.

على غير توقع، وأقل سوء فهم قد ينـــزل فجأة بالقبيلة المهزومة أو الفرد الذي أضير في سمعته من علوّ شأنه إلى الذل أو العبودية. والشعراء الذين درجوا على المدح يمكنهم الذم والهجاء أيضاً. ويمكن أن تتردد أشعارهم الرائعة في كلّ ركن من أركان الجزيرة العربية حتى ينتشر هجاء القبيلة فلا يدع لأفرادها مكاناً ترفع رؤوسها فيها. وأكثر ما يذكر في هذه الصدد أشعار جرير -هذا بالرغم من أنه لم يكن من شعراء الجاهلية- ويعتبر شعره أكثر الأشعار تأثيراً وأفضل ما كتب من شعر في هجاء قبيلة بأكملها. فقد هاجم قبيلة نُمَيْر بشدة في شخص شاعر آخر هو أبو جندل بن معاوية النميري، ومن شعره ما يلي:

ولو وزنَت حلومَ بني نميـــرٍ على الميزانِ ما وزنتِ ذبابـــا
عرادة من بقية قوم لـــوط ألا تبًّا لمـــا عملـــوا تبابـــا
فغضّ الطَّرْف إنّكَ من نُمَيْرٍ فلا كعباً بَلَغتَ ولا كِلابـــا

أما الخزي الذي لحق بقبيلة نمير بعد شيوع ذلك الشعر لا يعادله خزي. وذكر ابن رشيق[3] أنّه بعد تاريخ مجيد طويل كان على النميريين مغادرة ديارهم، بعد أن لاحقتهم أبياتُ جرير التي سمّاها العرب "الفاضحة". ويسجل النويري[4] في كتابه الأدبي والتاريخي الممتاز "نهاية الأرب في فنون الأدب" أنّه بعد شيوع ذلك الشعر فيهم، كان النميريون

(3) ابن رشيق في **العمدة**: جزء 1، ص 51، دار الجيل، بيروت 1972م.

(4) شهاب الدين النويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، الجزء الثالث، ص 272، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1924م.

يخجلون من ذكر اسم قبيلتهم. فعندما كانوا يُسألون عن قبيلتهم يجيبون بأنّهم أبناء بني عامر بن صعصعة، جدّهم الأكبر، أما بالنسبة للشاعر أبي جندل الذي قيل الهجاء بسببه فقد أمسك بعدها عن قرض الشعر خزياً ومات في نفس العام الذي ذاع فيه ذلك الشعر. وقد زعم ابن سلاّم[5] أنّ التأثير البالغ لهذا الشعر كان السبب في موته.

وإذا كان هذا التأثير قد بلغ مثلَ ذلك المبلغ في عصرٍ انبثق فيه نورُ الإسلام وقضى على جاهليات قبليّة كثيرة، فيمكننا أن نتصوّر عِظَمَ تأثير الشعر العربي الجاهلي على قبائل العرب قبل الإسلام.

ولا شك في أنّ مثل هذه القبلية والعصبية الجاهلية لا يقويها شيء مثل عبادة الأوثان. فلا يمكن لقلب يؤمن بإله رحيم واحد مهيمن-الخلق كلهم عبيده وعياله- أن يتعصّب لقبيلته بهذا القدر. فجميع القبائل أمام الله سواسية. أمّا الوثنية فآلهتها متعدّدة وكل إله تنْحَتُه قبيلة ما، تُوهم نفسها بأنّه يتعصّب لها من دون القبائل ويؤازرها في الحرب ويسقيها الماء صفواً ويهزم لها أعداءها من القبائل الأخرى، ويسقيهم الماء كدراً وطيناً. فالوثنية والقبيلة إذاً وجهان لعملة واحدة يشدّ كلّ منهما أزر الآخر، مما كان يثبّت أركان البناء الاجتماعي للحياة الجاهلية.

وهناك سبب آخر مهم للشعور بعدم الأمن المتأصل في الوقت، ومن العوامل المهمة التي أثّرت تأثيراً سلبيّاً في ذلك التكوين الأسري اتفاقُ جميع القبائل العربية في نظرتهم المتدنية تجاه المرأة، فالمرأة كزوجة كانت

---

(5) المصدر السابق.

عرضة غبن وحيف، فلم يكن لها حقٌّ في الميراث، بل كانت هي نفسها تُورَث كما يورث المتاع. فإذا مات عنها زوجها ولم تكن أمّاً لأكبر أبنائه فإنها تصبح متاعاً يرثه هذا الابن الأكبر. فيمكنه أن ينكحها إن شاء أو ينكحها آخر فيأخذ مهرها لقاء تلك الصفقة الظالمة[6].

وأحياناً كانت المرأة تحبس أعواماً لأكبر أبناء زوجها إن كان صغيراً عند موت أبيه حتى يكبر فإن شاء أصابها وإن شاء فارقها[7]. وقد كان من حق الزوج أن يترك زوجته معلّقة لأي مدة يشاء عقاباً لها أو انتقاماً لنفسه من سوء سلوكها، فلا هي زوجة ولا هي مطلقة، فتبقى في هذا السجن الجسدي والنفسي حتى يفرج عنها وقتما يشاء. وكان الطلاق شائعاً وكيان الأسَر مهدداً بنـــزوات الزوج.

وكانت هناك عادة أكثر وحشية وشيوعاً بين عرب الجاهلية ألا وهي وَأْد البنات، فعلى ما حكاه الميداني: "أنّ الوأد كان مستعملاً في قبائل العرب قاطبة، فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة... وكانوا يقتلون البنات ويئدونهن بقسوة نادرة في بعض الأحيان، فقد يتأخر وأد المولودة لسفر الوالد وشغله، فلا يئدها إلا وقد كبرت وصارت تعقل! وقد حكوا في ذلك عن أنفسهم مبكيات، وقد كان بعضهم يلقي الأنثى من شاهق"[8]. ولا بد أن الأم والأطفال الذكور في العائلة كانوا يتألمون من هذه الصدمة العاطفية ومن مثل تلك الأعمال غير الإنسانية حيث يسجل

---

(6) تفسير الطبري: جزء 4، ص 208، كما رواه الندوي: مصدر سابق، ص 68.

(7) المصدر السابق.

(8) ذكره هيثم بن عدي، انظر الندوي: مصدر سابق، ص 69.

التاريخ في تلك الفترة عدداً من القصص المأساوية[9] ولا يمكن للمرء إلا أن يتوقع أن كثيراً من هؤلاء الآباء القتلة كانوا يشعرون بآلام زوجاتهم وأطفالهم مما يؤدي بهم إلى الإحساس بالذنب.

وحتى بالنسبة للأولاد الذكور كان الآباء في الجاهلية يفخرون بهم، فقد كانوا رغم ذلك في عزلة عاطفية عن آبائهم الذين كان جلّ همّهم وعجالتهم أن يكبر هؤلاء الأولاد حتى تزداد القبيلة بهم قوة ويتيه بهم الأب فخراً.

فلم يحظَ مثلُ هؤلاء الأولاد بالتعبير التلقائي عن حب آبائهم وعطفهم الشديد نحوهم، حيث إنّ هذه الإيماءات العاطفية كتقبيل الأولاد وملاعبتهم من الأمور التي استحدثها الإسلام في عرب الجاهلية، ولعلّ من أوضح الأدلة على ذلك قصة عمر بن الخطاب المشهورة مع الوالي الذي نحّاه عمر عن ولايته لتعجبه من تقبيل عمر أبنائه وملاعبتهم أمامه، في حين أنّه كان له عشرة أبناء لم يقبّل أحداً منهم.

ومن العوامل المهمة التي كانت تزيد من تفكك الهيكل الأسري الجاهلي انتشار الزنى والدعارة، حتى أنّ بعض الأزواج -من شدة احتقاره لزوجته- وحرصه على أن يُرزق بولد قوي ذكي، وفي حالات نادرة، كان يبعث بها إلى رجل "فحل" يشتهر بالقوة الجسمية والعقلية

(9) انظر النويري: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، مصدر سابق، ص 126-127.

وذلك بعد طهرها من حيضها وكأنها ناقة يريدها أن تستولد له حتى تحمل وتعود إليه[10].

وأما الداعرات من النسوة فكن يطلبن الجماع من جماعة من الرجال واحداً تلو الآخر حتى إذا حملت إحداهن كان لها الحق في اختيار الأب الذي تريده لطفلها من تلك الجماعة، وكان عليه أن يوافق،[11] وكانت هناك أنواع أخرى من الدعارة من النوع التقليدي حيث يذهب رجال إلى بيوت عليها علامات مميزة قد رُفعت عليها رايات خاصة[12].

وبهذا كان من الطبيعي أن تصبح الخمر شيئاً لا غنى عنه في حياة مجتمع كهذا المجتمع الجاهلي، ومن المتوقع أن تكون النساء بشكل خاص في حاجة إلى احتساء كميات كبيرة من الخمر حتى يخففن من ضغوط الحياة القاسية التي يتعرّضن لها. وإذا أخذنا في الاعتبار النظريات والدراسات النفسية والتحليلية الحديثة التي تعتبر الاعتماد على الكحول في الكبر نتيجة مباشرة للحرمان وعدم الأمن في الطفولة، فضلا عن التفكك العائلي والصدمات الانفعالية، في بيئة يوجد فيها الخمر، فإنّ الحياة في العصر الجاهلي كانت تربة خصبة لتربية المدمنين والمعتمدين

---

(10) انظر الحديث المشهور لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، الذي فصلت فيه ما كان من أمر النكاح في الجاهلية. الحديث رواه البخاري وأبو داود، تجده في كتب "**جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد**" للإمام محمد بن محمد بن سليمان: طباعة بنك فيصل الإسلامي، قبرص، 1405هـ، الجزء الأول، ص 628.

(11) **المصدر السابق**: أي حديث السيدة عائشة الذي رواه البخاري.

(12) **نفس المصدر السابق**.

على الخمر. كذلك لم يكن من المستغرب أن نعرف من تاريخ العرب قبل الإسلام أنّ الإكثار من شرب الخمر والكرم وإطعام الطعام كانت من أهم علامات الشهامة التي تكسب الفرد والقبيلة شرفاً ومدحاً كثيراً. والشعر الجاهلي غنيّ بالأعمال الأدبية الرائعة التي تربط بين العصبية القبلية والشهامة والسخاء والشجاعة ونصرة المستغيث وبين الإفراط في شرب الخمر وإطعام الأضياف وإروائهم بالكثير من أجودها.

ولعلّ قصيدة طَرَفة بن العَبد الشاعر الجاهلي المعروف، هي أفضل ما يوضّح هذا الأمر أيّما توضيح، يقول طرفة:[13]

إذا القوم قالوا مَم فتىً خِلتُ أنّني
عُنيتُ فلم أكسلْ ولم أتبلّدِ
ولستُ بحَلاّلِ التلاعِ مخافةً
ولكن متى يسترفِدِ القومُ أرفدِ
وإن تبغِني في حَلقَةِ القوم تلْقَني
وإن تقتَنِصْني في الحوانيت تصْطدِ
فلولا ثلاثٌ هنّ من حاجة الفتى
وجدِّك لم أحْفلْ متى قام عُودي
فمنهن سبقي العاذلاتِ بشربةٍ
كُمَيْتٍ متى ما تُغْلَ بالماءِ تُزْبِدِ

فيقول في البيت الأول إذا نادى القوم: مَن الشجاع الذي يدفع عنهم شراً تيقن أنه هو المقصود فبادر في الحال بلا كسل أو تثاقل. ذلك لأنه

(13) علي الجندي: ديوان طرفة بن العبد، مكتبة الإنجلو المصرية، القاهرة 1958، ص 45-49.

كما يقول في البيت الثاني، ليس بالذي يحُل التلاع، أي ليس بالذي يستتر وراء مجاري الماء في الأودية خوفاً من أن يكتشف الأعداء مكانه أو يراه الأضياف فينـــزلون عنده، لكنه الشجاع في قتال الأعداء والكريم في إطعام الضيوف.

ويفتخر في البيت الذي يليه بأنه في مكان الصدارة في الأمكنة التي يجتمع فيها القوم وأنه يديم البقاء في الحوانيت وهي جمع حانوت وهو الذي تباع فيه الخمر. أما في البيت الرابع فيفتخر بأنه يسقي من يأتيه صباحاً كأساً روية من الخمر "الصبوح" وإذا جاءه مثل هذا الضيف وجده قد شرب خمراً كثيراً ووجده كريماً في تقديم أجودها وخيرها. كما ينصح من كان عنده خمر كثير أن يستمتع بها ويكثر من شربها "فاغْنَ وازددِ". ثم يؤكد بعد ذلك في البيت الذي يليه بأنه لولا ثلاثة أشياء يتلذذ بها الفتى الكريم لم يبالِ بالموت ولم يهتم بوقت نـــزوله به.

وأول الأمور الثلاثة هي الخمر المُعتَّقة ذات اللون المسودّ الضارب في الحمرة "كُمِيْت" إذا صُبّ عليها الماء أزبدت وصار لها حُباب.

ويصل الأمر بالشاعر إلى القول بأنه ينفق كل ما يملك في شرب الخمر:

وما زال تشْرابي الخمور وَلَذّتي وبيعي وإنفاقي طَريفي ومُتْلَدي

فهو يفتخر بأنه داوم على الإفراط في شرب الخمر والاشتغال بلذاته حتى أنفق عليها "الطريف" -أي الأموال الحديثة- و"المتلد" -أي أمواله الموروثة-.

ثم يمضي الشاعر طالباً من عاذله أن يتركه يشفي نفسه ويرويها ويمتعها بشرب الخمر قبل أن يأتيه الموت، فإنه يخاف ألا يشرب عند الموت إلا شرباً متقطعاً لا يرويه. ويقول لعاذله إنه رجل كريم مع نفسه يشبعها مما تشتهيه فإذا جاء الموت سيتضح لهذا العاذل أيهما العطشان المحروم الذي بخل بماله على نفسه أم ذلك الذي استمتع بالحياة وملذاتها، وبشرب الخمر الكثير. وقد صاغ طرفة هذه المعاني في البيتين الآتيين من القصيدة نفسها:

فذروني أُروْي هامتي في حياتها مخافــةَ شُرب في الممات مصَــرَّدِ
كريمٌ يُروّي نفسَه في حياتــه ستعلمُ إن متنا صدىً أيّنا الصّدي

وقد كانت الخمر في الواقع مألوفة لدرجة أن كلمة "تاجر" أصبحت مردفة لبائع الخمر. ولم تكن تُغلق حانات أولئك التجار ليلاً أو نهاراً كما كانت تتميز برايات خاصة. وهكذا اكتسب العربُ خبرة واسعة وذوقاً رفيعاً لمختلف أنواع المشروبات الكحولية المصنوعة محلياً والمستوردة[14] التي تأتي مختومة من بلاد بعيدة، واستمع في ذلك لشعر الأعشى وهو يصف خمرة معتقة مستوردة يبرزها صاحبُها اليهودي مختومة لم تعبث بها الأيادي ولم تفضها بعد، ويصل الأمر بالأعشى في تعظيم هذه الخمر المعتقة بأن صاحبها يصلي عليها مكبّراً!! ثم يقول بأنه تذوقها متمزمزاً متلذذاً متأنياً" (كما يفعل الخبير المتخصص المعاصر) وهو مقبل عن ندمائه في انشراح وحبور. يصوغ ميمون بن قيس "الأعشى" هذه المعاني في الأبيات الآتية:[15]

---

(14) النويري: مصدر سابق، الجزء الرابع، ص 86.

(15) **ديوان الأعشى الكبير**: شرح وتعليق الدكتور محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة 1950، ص 35.

وصَهباء طافَ يهوديُّهـــا   وأبْـــرَزَها وعليهـــا خُتُـــمْ
وقابلها الريـــح في دنّهـــا   وصلّى على دَنِّها وارْتَســـمْ
تَمزَّزْتُها غيـــر مستَدبـــرٍ   عن الشربِ أو مُنْكِرٍ ما عُلِم

لذلك أطلق العرب مئات من الكلمات والمترادفات لوصف تلك الأنواع المختلفة من الخمر تدل على أصلها ودرجات تركيزها والفاكهة التي صنعت منها وطريقة تخمرها وأثرها على الشارب ودرجة نقائها ولونها والعديد من الصفات الأخرى[16] من أسماء الخمر المشهورة، وما قيل فيها:

قيل سمِّيت خمراً: لأنها تخامر العقول فتخالطها، وقالوا: لأنّها تخمر في الإناء أي تُغطى، وهي مؤنثة. ويقال لها "القهوة" لأنها تقهي عن الطعام والشراب. يقال: أقهى عن الطعام وأقهم عنه إذا لم يشتهه. ومن أسمائها "الشمول"، لأنها تشمل القوم بريحها. ومنها "السلافة"، أي العصير ومثله الخرطوم. ومنها: "القرقف"، لأنّ شاربها يقرقف -أي يرعد- إذا شربها. ومنها "الراح" لأنها تكسب صاحبها الأريحية أي خفة العطاء. ومن بعض أسمائها المشهورة "المزة" و"المزاء" لطعمها، و"الحد" لحدّتها، ومثله "الحميا"، و"المعتقة".

وتختلف أسماؤها كذلك تبعاً لصانعها، "فالنبيذ" نبيذ: "العسل"، و"السكركة" من الذرة، و"الجعة" من الشعير، و"الفضيخ" من البسر، و"المزر" من الحبوب.

(16) النويري: مصدر سابق.

كما اكتسب العرب خبرة ثاقبة في الآثار النفسية والجسمية لتناول الخمر والاختلافات الفردية بين الناس في هذا المضمار، ومن الأمثلة الطريفة في هذا ما أورده النويري[17] حيث قال: "قيل لعبدالعزيز بن عمر: إنّ بنيك يشربون الخمر، فقال صفوهم لي، فقالوا: أمّا فلان إذا شرب خرق ثيابه وثياب نديمه، فقال: سوف يدع هذا شربها، قالوا: وأما فلان فإذا شربها تقيأ في ثوبه، قال: وهذا سوف يدعها، قالوا: وأما آدم -ابنه الثالث- فأسكن ما يكون، لا ينال أحداً بسوء، قال: هذا لا يدعها أبداً.

ونجد هذه الخبرة الثرة عن تأثير الخمر النفسي في ثنايا الشعر الجاهلي، فالأعشى، مثلاً، يتحدث في إحدى قصائده عن شربه الخمر، حمراء كلون الدم المتساقط من اللحم، تكاد -مما فيها من الحرارة الكامنة- أن تفجر جلد الزقّ الذي امتلأ بها. ثم يتحدث عن الفرق بين أثر الخمر النفسي على شاربها في الصباح وفي المساء؛ ففي الصباح يشرب وهو منقبض النفس يسيطر عليه الاكتئاب وتلسعه الهموم، أما في المساء، وبعد أن يمتلئ الجسم بالكحول تجد الشارب مسروراً منشرح الصدر تهزّه نشوة تجعله لا يقيم للمال وزناً ويسارع إلى البذل والفداء، يقول الشاعر إنّه من أجل ذلك كان حريصاً على الخمر، يشربها بكثرة على كل أحواله غنياً كان أو معدماً لا يجد قوته أو صعلوكاً. يقول الأعشى:[18]

وكأسٍ كماء النَّيِّ باكرتُ حدَّها بغرَّتها إذا غـــاب عني بغاتهـــا
كُمَيْتٍ عليها حُمرةٌ فوق كُمْتَـــةٍ يكاد يُفرّي المسكَ منها حَماتها

(17) انظر النويري: مصدر سابق، الجزء الرابع، ص 95.

(18) ديوان الأعشى الكبير: مصدر سابق، ص 83 و 84.

لعُمرك إن الراح إن كنتَ سائــلاً   لَمختلفٌ غُدَيّـــها وعشاتُهـــا
لنا من ضحاها خبثُ نفسٍ وكآبةٌ   وذكرى هموم ما تَغبُّ أذاتُهـــا
وعند العشيّ طيب نفس ولــذةٌ   ومـــالٌ كثيرٌ غُدوةً نشواتُهـــا
على كل أحوالِ الفتى قد شَربتُها   غَنيًّا وصُعلوكاً وما إن أقاتُها

أمّا امرؤ القيس[19] فقد وصف تأثير الكحول في تشويه الإدراك الحسي لدى الإنسان، فيقول بأنهم أكثروا من الشرب حتى فقدوا القدرة على التفريق بين الأحجام والألوان وتحيرت أبصارهم حتى حسبوا الخيل من حولهم "نِقاداً" والنقاد: غنم صغار، وحتى بدا لهم "الجون" -أي الفرس الأسود- في لون أشقر!

ونشرب حتى نحسِبَ الخيلَ حولنا   نِقاداً وحتى نحسِبَ الجَوْنَ أشقرا

لذا كان من الطبيعي لمن ينشأ في تلك البيئة المشبعة بالخمر، ولمن يشبّ في ذلك المجتمع الرومانسي الذي كانت المحركات الأساسية النفسية فيه المنافسة حول الكرامة الشخصية والقبلية مقابل الإحساس العميق بعدم الأمن من الأخطار الحقيقية والمتخيلة، أن يبحث عن الأمن النفسي مع الاحتفاظ بأقصى درجات الكبرياء الذاتي والقبلي في خيالات السكر.

ويمثل ذلك أجمل تمثيل الشاعر العربي القديم المنخّل اليشكري في قصيدته التي نقتطف منها:

ولقد شربتُ من المــدا   مة بالصغيـــر وبالكبيـــر
فـــإذا سكرتُ فإنـــي   ربّ الخَوَرْنـــقِ والسَّديـــر

(19) ديوان امرئ القيس: تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف بمصر، ص 71.

وإذا صحوتُ فإنني ربّ الشويهةِ والبعير

ويذهب بعيداً فيتحدث بصورة خيالية عن محبوبته فيقول:

فأُحبّها وتُحبني وتحبّ ناقتها بعيري

وهذا حسان بن ثابت، الصحابي الجليل يؤكد بشعره في جاهليته وقبل إسلامه مكانة الخمر العالية التي لا يدانيها شرابٌ آخر، وعلى دورها النفسي المهم للجاهلي المقاتل الذي تسلّطت عليه أوهامُ الفخر والخُيلاء.

ففي البيت الأول يعظّم الخمرَ أيما تعظيم حتى ليجعل جميع الأشربة الأخرى فداءً لها، ثم ينتقل في البيت الثاني إلى ذكر ذلك الجانب النفسي المهم للخمر في الجاهلية، فقد كانت "الشماعة" التي يعلق عليها الجاهلي ما يصيبه من لوم بسبب قتاله وسبابه الآخرين، "نوليها الملامة" إذا صدر منها "مَغْثٌ" أي شرٌّ وقتال أو حدث بيننا "لِحاء" أي سباب، فهذا شأنها مع السكارى!

ثم يؤكّد في بيته الثالث أثر الكحول في إحساس الجاهلي بالكبرياء والفخر بقبيلته حتى ليشعر بأنه ملك متوج، ولشجاعته عند لقاء العدو وكأنه ليث هصور. يقول حسان[20]:

إذا ما الأشرباتُ ذُكِرْنَ يوماً فهنّ لطيّبِ الرّاحِ الفداءُ

نُوَلّيها الملامةُ إن أَلَمْنَا إذا ما كانَ مغثٌ أو لِحاء

(20) عبد الرحمن البرقوقي، شرح ديوان حسان بن ثابت لأنصاري: المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة 1929 ص493.

ونشربهـــا فتتركَنا ملوكـــاً وأُســـداً ما يُنَهْنِهُنا اللقـــاءُ

وقيل إن البيت الأخير هو آخر ما قاله حسان من هذه القصيدة في جاهليته، ويُروى أنّ حسان أنكر على فتية من عشيرته لشربهم الخمر وهاجمهم هجوماً شديداً، فقالوا له: قد أخذنا هذا منك، ألست القائل: فتتركنا ملوكاً وأسداً ما ينهنهنا اللقاء؟ فقال لهم حسان: هذا شيء قلته في الجاهلية، واللهِ ما شربتُها منذ أسلمت[21].

إذن فهكذا كانت حاجة المجتمع العربي الجاهلي للخمر والإفراط في شربها، فالأسر يتعرّض أطفالُها لقسوة الآباء ووأد البنات، والنساء يتعرّضن للإذلال والبطش والإرث كأنهن بعض المتاع، والرجال يخوضون معارك لا نهاية لها، ويثيرون حمية العصبية القبلية بإلقاء الخطب والقصائد في المسابقات العامة التي يشارك فيها فطاحل النقّاد.

ولا يأمن في الحقيقة أحد -مهما كانت مكانته- على نفسه وماله وعرضه. فنتائج الغزو والقتال تصيب الرؤوس والعامة بالقتل والجروح، أو الأسر والاسترقاق وسلب المال والجاه والعرض. والرأي العام يقلبه الشعراء حيث شاءوا بالمدح الذي يسكر القبيلة زهواً أو الهجاء الذي يجعلها تتوارى من القوم مسودّة الوجه يطاردها الخزي والعار.

ومن المفيد أن نسجّل في نهاية هذا التحليل أنّ علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية المعاصرين يؤكدون[22] بعد دراسات وأبحاث

---

(21) المصدر السابق، ص 3.

(22) Coleman, et. Al., Abnormal psychology and modern live, Soctt, Foresman and Co. London, 1984

ميدانية كثيرة بأن مدى انتشار الكحول والإدمان في مجتمع أو حضارة ما يتأثر بثلاثة عوامل مهمة: أولها درجة الضغوط النفسية والتوترات التي تحدثها تلك الحضارة في المجتمع، وثانيها الاتجاهات السائدة في تلك الحضارة نحو تناول المسكرات، وثالثها قدرة الحضارة المعنية في إعطاء أفراد المجتمع طرقاً بديلة ونشاطات تستطيع امتصاص تلك التوترات والضغوط السائدة التي كانت حافزاً لاستهلاك الكحول.

ويوضح أثر الضغوط النفسية في المجتمع كحافز لتناول الكحول الدراسات الميدانية المقارنة الرائدة التي أجراها Horton[23] على أكثر من 56 مجتمعاً من المجتمعات البدائية. فوجد أنّه كلما زادت نسبة الضغوط والشعور بعدم الأمن والاستقرار في المجتمع، ازداد بشكل ملحوظ استهلاكه للمواد الكحولية. نفس التجربة خرج بها Schafer[24] بعد دراسة 57 مجتمعاً قبلياً وبعد سنين عديدة من دراسات Horton، إذ اتضح له أنّ القبائل الوثنية التي تعيش في مجتمعات ضاغطة وتكثر فيها النشاطات التنافسية ويسود فيها الإحساس بالخوف من انتقام أرواح أجدادهم الشريرة التي يعبدونها، يشرب أفرادها الخمر بإسراف شديد ويكثر فيها المدمنون. وكان تناول المواد الكحولية يقل في القبائل الوثنية التي تتمتع بالروابط الأسرية المستقرة وتقل فيها ضغوط العقائد الوثنية بل

---

(23) Horton, "the Function of Alcohol in Primitive Societies: A Cross Cultural Study." Quarterly.. journal for the stududy of Alcohol. 4, 1943.

(24) Schaefer, Drunkenness and Culture Stress, Transcultural Psychiatry Review, 11, 1974.

إن Chagnon[25] وجد أنّ بعض القبائل البدائية في جنوب فنـــزويلا وشمال البرازيل والتي تميزت بالعدوان والحروب المستمرة تماماً كعرب الجاهلية، رغم الفجوة الحضارية الكبيرة بينهم وبين العرب، قد انتشر لديهم تعاطي المخدرات بشكل كبير. فلاحظ في القرية التي كان يسكن فيها أنّ القبيلة شنّت خمساً وعشرين غزوة وحرباً على القبائل المجاورة في مدة لا تزيد على 19 شهراً. كما ارتبطت الوثنية والحروب القبلية التي لا نهاية لها مع الإدمان والإسراف في تعاطي الخمر ووأد البنات عند عرب الجاهلية، وَجدَ Chagnon[26] أيضاً أن الوثنية وتعاطي المخدرات والحروب القبلية قد ارتبطت في القبائل التي درسها بعادة قتل الإناث من المواليد بحجّة أنّهن عبء لا ضرورة له في مجتمع يحتاج للذكور للحروب والدفاع عن القبيلة، حتى أصبح أهم أهداف الحروب لدى القبائل البرازيلية هو الاستيلاء على نساء القبائل الأخرى لقلة عدد الإناث بينهم بسبب قتلهن صغاراً.

ولا يحتاج المرء أمام هذه النتائج إلى كثير تعليق. فالعوامل الثلاثة التي تؤثّر في انتشار الكحول وجدت أخصب التربة وأفضل الظروف المناخية لتعميق جذورها النفسية والاجتماعية في مجتمع جزيرة العرب الجاهلي الذي أغرق نفسه في الخمر. فقد وضحنا أولاً طرفاً من الضغوط النفسية والشعور بعدم الأمن والاستقرار الذي عاشته القبائل العربية بوثنيّتها وقبليّتها المتطرفة وأُسرها الممزقة. كما أشرنا إلى المكانة التي كانت تتمتع

(25) Changnon, "Beastly or Manly", time Magazine, May 10, 1976 p. 49.

(26) Ibid.

بها الخمر في الجاهلية، وهذا هو العامل الثاني. أما العامل الثالث، فمن الواضح أنّ المجتمع الجاهلي لم يكن ليستطيع بسبب تمزّقه ووثنيته أن يعطي أفراده أيّ بدائل مناسبة للتغلب على ضغوطه النفسية المدمرة التي كانت حافزاً للسكر وكان السكر والاعتماد على الكحول مدعماً لها!

ونعود الآن إلى المدينة المنورة لنشهد أنّ المسلمين هناك أسّسوا أول دولة للإسلام. وقد نشأت هذه الصفوة المباركة على نفس التقاليد الوثنية الجاهلية التي تتيه بالزهو والفخار بقبائلهم وآبائهم الأولين، ولكنها نَأَتْ بنفسها عن تلك العصبية في ظل التغييرات الاجتماعية والدينية التي شهدتها المدينة تحت راية لا غله إلا الله التي رفعها رسول الهدى محمد بن عبدالله ﷺ، وغرس فيهم الإسلام وعياً جديداً وعادات اجتماعية وسياسية واقتصادية جديدة، بينما كان العرب في مكة المكرمة والمناطق الوثنية الأخرى يعيشون في جاهليتهم.

لذلك حقَّ لنا أن نعتقد بأن أيّ تغير في اتجاهات جماعة المؤمنين وسلوكها في المدينة إنما كان أساساً بسبب هذا العامل الجديد في حياتهم وليس لأي سبب آخر.

وقد نجد التأييد لذلك حتى من وجهة النظر التجريبية البحتة رغم ما يبدو في ذلك من حذلقة أو مبالغة في تبسيط ظواهر معقدة. فنادرة جدّاً هي التجارب الإنسانية الجماعية التي تتمّ بطريقة تشابه تصميمات التجارب المختبرية والميدانية في الدراسات الاجتماعية والإنسانية، فكثير من المبادئ والنظريات والاختبارات المهمة في علم النفس وغيره من

الدراسات الاجتماعية لا تقوم إلا على تجارب مختبرية مصطنعة أن أبحاث تجريبية ميدانية تُجرى على حفنة من الأفراد. فإذا وجد ما يشابه هذه الأبحاث التجريبية في واقع الحياة التي يشارك فيها عشرات الآلاف من الأفراد كان ذلك مدعاة للاهتمام بها من هذه الزاوية التجريبية. كذلك فإنّ استطرادنا هذا قد لا يخلو من بعض الطرافة!

كيف يتأكد الباحث بأن العامل "أ" يؤدّي حقاً إلى التغير "ب"؟ إنّ أبسط أنواع التصميم التجريبي في العلوم البحتة وفي علم النفس والعلوم الاجتماعية هو التجربة التي تقوم على مجموعتين متماثلتين، هما المجموعة التجريبية Experimental group والمجموعة الضابطة Control group . ويقوم الباحث بتغيير معيّن أو إدخال نشاط محدد بالنسبة للمجموعة التجريبية-وهو ما يسمى بالمتغير المعتمِد Dependent variable- الذي يمكن ملاحظته وقياسه بالمقارنة للمجموعة الضابطة التي لم تتعرض لذلك النشاط، فإن ذلك سيدلل على صحة الفرضية القائلة بأنّ المتغير المستقل هو الذي أحدث هذا التعديل في السلوك. ذلك إذا استطاع الباحث ضبط المتغيرات الأخرى.

ففي مجال الطب مثلاً يأتي الباحث بمجموعتين متماثلتين من مرضى الملاريا، ويعطي المجموعة التجريبية العقار الجديد الذي يريد التأكد من فعاليته في شكل كبسولات، ولكي يتأكد من أن إعطاء الحبوب في حدّ ذاته لا يؤثر على دقّة التجربة يعطي المجموعة الضابطة كبسولات مشابهة، لها نفس الشكل واللون لكنها لا تحتوي على العقار، كأن تكون محشوّة بالسكّر. تُعطَى الكبسولات للمجموعتين في نفس الوقت مع تقديم نفس

الطعام والشراب وظروف الحياة الأخرى. بعد ذلك يلاحظ الباحث بعد مرور الوقت المحدد إن كان عدد الذين شفوا من الملاريا في المجموعة التجريبية أكثر من المجموعة الضابطة بالنسبة الكافية التي تتعدّى عوامل الصدفة والاختلافات الطفيفة بين المرضى.

يستخدم الأسلوب العلمي نفسه في العلوم الاجتماعية والتربوية لكن التصميم التجريبي يحتاج في كثير من الحالات إلى الفصل التام بين المجموعات التجريبية والضابطة. فعندما يكون من المفترض أن يؤثر المتغير المستقل على اتجاهات الأفراد أو معلوماتهم، كاستخدام شرائط الفيديو مع المجموعات التجريبية، فإن وجودهم مع المجموعات الضابطة لا يستبعد التأثير الاتجاهي لبعضهم على بعضهم الآخر، ولا يستبعد نقل المعلومات بينهم.

من هذا المنطلق يمكننا النظر إلى جماعة المسلمين في المدينة المنورة كمجموعة تجريبية كبيرة، في حين تمثّل القبائل العربية في مكة المكرمة وما جاورها مجموعات ضابطة، وتمثّل هجرة المؤمنين إلى المدينة عملية ضخمة لعزل الجماعة التجريبية عن الجماعات الضابطة. ويمكن النظر للإسلام وهو أسلوب متكامل للحياة من هذه الزاوية التجريبية على أنّه المتغير أو العامل المستقل، أما التغير العظيم الذي حدث في الجماعة المؤمنة بما فيه انتصارهم على غول الكحول كمتغير معتمد يمكن التعرف على أغواره بمقارنة مجتمع المؤمنين وأفرادهم بالقبائل الوثنية المحيطة بهم.

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية:21]

فهذه تجربة إسلامية ميدانية اشترك فيها الآلاف من الأفراد وأخرجت خير القرون ليظل نبراساً للبشرية ما دامت السماوات والأرض.

ولكن كيف تَمّت معجزة الإقلاع الجماعي عن شرب الخمر في المدينة المنورة؟ وما هي الأسس النفسية التي يمكن استخلاصها من هذه الظاهرة المباركة؟ هذا ما سنحاول توضيحه في الفصل القادم.

obeikandl.com